الفصل الثالث

تعليم الصبيان فى القرن الرابع الهجرى

نستطيع أن نجعل كتاب القابسى الأساس الذى نعتمد عليه فى الكلام عن تعليم الصبيان فى القرن الرابع الهجرى ، دون أن يمنعنا ذلك من استقصاء آراء المسلمين الذين تقدموه أو تأخروا عنه . على أن يكون المحور الذى ندور حوله ونعود إليه ، هو كتاب القابسى . لأنه محدود وكامل . ومرآة للعصر الذى عاش فيه .

توفى القابسى سنة ٤٠٣ هجرية ، وهى توافق سنة ١٠١٢ ميلادية . ولا نستطيع أن نعرف على وجه التحقيق العام الذى ألف فيه هذا الكتاب ، من بين الأعوام الثمانين التى عاشها المؤلف . وأكبر الظن أنه لم يكتبه فى الأعوام الأخيرة التى سبقت وفاته ، لأننا إذا نظرنا إلى تصانيفه التى ذكرها أصحاب التراجم ، نجدها أربعة عشر كما جاء عن القاضى عياض ، وذكر منها صاحب معالم الإيمان عشراً ، أكبرها كتاب «المهد فى الفقه وأحكام الديانة» . بلغ فيه إلى ستين جزءاً ولم يكمله[1] .

فقد كان فى أواخر حياته مشغولاً بإنجاز هذا الكتاب فى الفقه ، ولم يكن عنده من سعة الوقت ما يجعله ينصرف إلى الاهتمام بتصنيف كتاب فى تعليم الصبيان وأحكام المعلمين . على أن عام وفاته لا يبتعد عن القرن الرابع الهجرى إلا بثلاث سنوات ، إذا تجاوزنا عنها . نستطيع أن تقول إن كتابه فى التعليم ألف فى القرن الرابع . ثم إن عالماً يولد فى سنة ٣٢٤ . ويتوفى فى سنة ٤٠٣ ، لجدير أن يعد من علماء القرن الرابع لا الخامس . لأن معظم حياته ، وفتوة شبابه ، وبأس رجولته ، وكمال علمه وعقله وعمله . وقع ذلك فى القرن .

(١) معالم الإيمان ص ١٦٨ .

وقد فطن الدكتور إبراهيم سلامة[٢] إلى قيمة هذا الكتاب ، ونبه إلى قدر المؤلف ، وإلى أهمية آرائه ولكنه اعتبر عام وفاته ٧٠٦ هجرية ، وهى السنة المكتوبة فى آخر المخطوط ، وهى تاريخ النسخ لا تاريخ التأليف أو عام وفاة المؤلف ، وبذلك اعتبر القابسى من علماء القرن السابع أو الثامن الهجرى .

وظهر فى عالم التأليف فى الإسلام من الفصول فى التربية ما ترتفع قيمته من الناحية العلمية والفنية ، ويجعل أصحاب هذه الآراء من رجال التربية البارزين . ونخص بالذكر ابن مسكويه ، المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، والغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ . ولكنهم جميعاً متأخرون عن القابسى ، ولو أنه كان متأخراً عنهم لتضاءل شأنه بالنسبة إليهم ، ولا قتضاه الزمن أن يأخذ عنهم ، وينقل عنهم . أما وقد سبقهم فله فضل السبق ومزية التقدم .

لم يفت الدكتور سلامة أن يشير إلى أهمية القابسى ، فذكر فى الملحوظات التى قيدها عن المراجع ما يأتى : «وقع اختيارنا من بين كتب التربية التى يمكن أعتبارها كذلك طبقاً لعنوانها على كتابين ذكرناهما فى المجلد الخاص بالمراجع ، وهما للزرنوجى والقابسى . وقد أوردنا عنهما نظرة دقيقة . بل ترجمة بعض النصوص التى نعتقد أنها مهمة من ناحية التربية والمنهج ، ولا تزال آراؤهما فى الوقت الحاضر أساساً[٣] للتربية» .

تقدم الزنوجى (المتوفى ٥٧١ هـ) على القابسى ، لأنه متقدم عليه فى الزمن فى رأيه الذى دحضناه .

والذى نراه أن كتاب «تعليم المتعلم طريق التعلم» للزرنوجى ، ليس من الكتب ذات القيمة الكبيرة فى التربية كما سنذكر فيما بعد . ولذلك لا يصح أن يقرن بالقابسى . ولو أن الدكتور إبراهيم سلامة صحح تاريخ وفاة القابسى لرفع من شأنه أكثر مما فعل ، فهو أكمل كتاب فى التربية والتعليم ، جاء بعد كتاب «آداب المعلمين» لابن سحنون .

---

(٢) Ibrahim Salama. Bibliographie Analytique p. 10.

(٣) Ibrahim Salama. Bibliographie Analytique. Introduction p. XXI.

كتاب ابن سحنون[٤] :

وكتاب «آداب المعلمين» مما دون محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ هـ عن أبيه صغير الحجم ، يبلغ ربع كتاب القابسي أو أقل ، وهو خاص بتعليم الصبيان ، اعتمد عليه القابسي كثيراً ، ونقل عنه ، واسترشد به ، وترسم خطاه .

وتبلغ صفحات هذا الكتاب المطبوع ٦٤ صفحة ، منها ٣٨ صفحة مقدمة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في شئون التعليم . فكأن كتاب ابن سحنون نفسه عبارة عن ست وعشرين صفحة لا غير من الحجم الصغير .

ونثبت فيما يلي فهرست هذا الكتاب ، لتتضح لنا الموازنة بين ما تعرض له ابن سحنون وبين ما كتبه القابسي :

١ – ما جاء في تعليم القرآن العزيز .

٢ – ما جاء في العدل بين الصبيان .

٣ – باب ما يكره محوه من ذكر الله .

٤ – ما جاء في الأدب وما يجوز في ذلك وما لا يجوز .

٥ – ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم .

٦ – ما جاء في القضاء بهدية العيد .

٧ – ما يجب للمعلم من لزوم الصبيان .

٨ – ما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب .

٩ – ما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه .

وبالرجوع إلى نص الكتاب ، نجد أن ما نقله القابسي عنه يكاد يكون بلفظه . في بعض المواضع ، وباختلاف يسير في مواضع أخرى ، كحذف السند عن رأي فقيه أو تغيير في العبارة دون إخلال بالمعنى .

على أن القابسي لم يكتف بما أخذه عن كتاب «آداب المعلمين» ، بل نقل عن

---

(٤) اعتنى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ، سنة ١٣٤٨ هـ ، طبع تونس ، وسننشره في ذيل هذا الكتاب تحقيقاً للفائدة .

الفقهاء الذين أخذ عنهم سحنون وابنه ، كابن القاسم وابن وهب وغيرهما .

فإذا كان لابن سحنون فضل الصدارة فى تحرير كتاب خاص فى تعليم الصبيان فللقابسى مزية التوسع فى هذا الموضوع ، والإفاضة فى أبوابه المختلفة ، والترتيب الذى يدل على استقرار فكرة التعليم فى الذهن والعمل على بيان السبل المختلفة المؤدية إلى تحقيق الغاية المنشودة منه . فالقابسى يسجل فى كتابه أحوال تعليم الصبيان فى القرن الرابع ، وابن سحنون يدون هذه الأحوال فى القرن الثالث .

مرحلة تعليم الصبيان :

يختص كتاب القابسى بالبحث فى شئون التعليم المتعلقة بالصبيان فقط . ويتعرض كذلك للمكان الذى يتلقون فيه العلم وهو الكتاب . ولو أن المؤلف جعل عنوانه « الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين من الصبيان » لكان ذلك منه فضلاً فى الإيضاح والبيان .

وللصبى سن يبدأ عندها فى دخول الكتاب ، وسن ينتهى بعدها من التعلم فى ذلك المكان . ولكن القابسى لم يحدد سن الدخول ، أو عدد السنين التى يقضيها الصبى ، وهى مدة الدراسة فى الكتاب . ونستطيع مع ذلك أن نتلمس زمن ابتداء التعليم ووقت انتهائه فيما يختص بالصبيان من ثنايا ماكتبه .

يقول الدكتور إبراهيم سلامة : « إن الطفل بعد أن يتلقى التعليم فى المنزل يذهب إلى الكتّاب فى السابعة من عمره ، والحديث المتبع عند المسلمين « علموا أولادكم الصلاة إذا كانوا بنى سبع ، واضربوهم عليها إذا كانوا بنى عشر » . ثم ذكر فى الهامش ما يأتى : « كان هذا هو الأغلب . وهناك حالات كان الأطفال يدفعون إلى المعلمين فى سن الخامسة والسادسة – انظر طبقات الأطباء الجزء الثانى ص ٩٩ والتبر للسخاوى ص ٢٤٢ » .

ويقول القابسى : « وينبغى للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بنى سبع سنين ويضربهم إذا كانوا بنى عشر . وكذلك قال مالك » ٤٣ – ب .

ونص الحديث كما أخرجه أبو داود : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع

سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

ولا يستنتج من ضرب الأولاد على الصلاة إذا كانوا بنى سبع سنين ، أن سن التعليم تبدأ منذ ذلك الوقت ، وأن يرجح الباحث هذه السن دون غيرها .

والواقع أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل فى تلقّ العلم ، وإنما كان الأمر متروكاً لتقدير آباء الصبيان ، فإذا وجدوا أن الطفل بدأ فى التمييز والإدراك ، دفعوا به إلى الكتاب . عن أبى بكر بن العربى قال : «وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهو أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب»[٥] .

ونحن نرجح أن هذه السن لم تكن محدودة ، وإنما كانت تشمل مرحلة بين الخامسة والسابعة ، تبعاً لإختلاف نضج الصبيان وتقدمهم فى الفهم والتمييز . جاء عن القابسى : «سئل مالك عن تعليم الصبيان فى المسجد فقال لا أرى ذلك يجوز ، لأنهم لا يتحفظون من النجاسة» وفى موضع آخر : «وإن كان صغيراً لا يقر فيه ويعبث فلا أحب ذلك» ٦٧ – ب .

فالطفل الذى لا يتحفظ من النجاسة ، ولا يستطيع الاستقرار هو طفل دون السابعة فى الغالب .

ويذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب رأيه ، دون النص على المراجع التى اهتدى بها فى تقرير هذا الرأى ، قال : «إذا بلغ الصبى الخامسة أو السادسة من العمر ساقه أبوه إلى الكتاب»[٦] .

أما السن التى ينتهى عندها تعلم الصبى فى الكتّاب ، فلم تذكر صراحة كذلك ، على أنه جاء أن المعلم ينبغى أن يحذر من الصبيان إذا بلغوا الاحتلام ٥٦ – ا .

«وإنه لينبغى للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده ، يناهز الاحتلام ، أو تكون له جرأة» ٥٧ ، ا .

---

(٥) كتاب أحكام القرآن لأبى بكر بن العربى ج ٢ ص ٢٩١ مطبعة السعادة سنة ٣٣١ هـ بالقاهرة .

(٦) آداب المعلمين ، حسن حسنى عبد الوهاب المقدمة ص ٣١ .

والشرط السابق يدل على أن أغلبية الصبيان لا يصلون إلى مرحلة البلوغ ، وأن بعضهم فقط هم الذين كانوا يظلون فى الكتاب حتى سن الاحتلام . وهذا السن تتراوح عند الذكور بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة .

على أن أكثر الصبيان لم يكونوا يمكثون فى الكتّاب حتى سن الاحتلام . وسبب ذلك أن أهم ماكان يعلم هو حفظ القرآن . فإذا بدأ الصبى تعلمه فى سن السادسة مثلاً فإنه يحتاج إلى أربع سنوات أو خمس ليتم حفظ القرآن ، وهو المعروف بالختمة .

وقد روى عن كثير من النجباء أنهم ختموا القرآن فى العاشرة . قال ابن عباس : «توفى رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم» ٢٥ – ب . وذكر ابن سينا بقص سيرة حياته : «ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضى منى العجب»(٧) .

ولا نأخذ النابغين مقياساً فى الحكم على العامة وأوساط الناس . فإذا قدرنا أن الممتاز النابغ النابه يحفظ القرآن فى العاشرة ، فإن المتوسط العادى يحفظه فى الثانية عشرة . أما المتأخرون فإنهم يحتاجون إلى زمن أطول ، وهذا هو السر فى تخلف بعض الصبيان فى الكتاتيب حتى سن الإحتلام .

ولم يكن حفظ القرآن جميعه واجباً على كل الصبيان ، بل جرى العرف أن من أحب استظهار القرآن كله بقى مع المعلم ، ومن أحب أن يترك الكتّاب قبل استكمال جميع القرآن ، فله الحرية . عن القابسى : «وأما الصبى علّم حتى تدانى من الختمة فأراد الخروج من عند المعلم إلى معلم آخر أو إلى صنعة أو إلى ما أحب الانتقال» ٣٢ – ١ .

لهذا نستطيع أن نقول : إن الصبى – فى الأرجح – كان يبقى فى الكتاب حتى سن الثانية عشرة أو ما دون ذلك .

فإذا اعتبرنا سن الالتحاق بالكتاب فى المتوسط هى السادسة ، وسن الخروج هى الحادية عشرة ، فإن هذه المرحلة من التعليم كانت تشغل خمس سنوات .

---

(٧) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢ .

مراحل التعليم :

تعليم الصبى أول مرحلة من مراحل التعليم . وقد اقتصر القابسى على بحث هذه المرحلة ، ولم يتعرض لما بعدها . ولم تأت إشارة كذلك إلى تعليم الصبى دون السادسة ، لأن هذا اللون من التعليم ، الذى أنشئت له مدارس الحضانة ورياض الأطفال ، لم يلق عناية علماء النفس والتربية إلا فى العصر الحديث .

وقد تصدى المؤلف للنواحى المختلفة فى تعليم الصبيان فتعرض لأغراض التعليم والمناهج والعقاب وطرق التدريس ، وأحكام خاصة بالمعلم ، ومكان التعليم وهو المعروف بالكتاب .

ومرحلة تعليم الصبيان من المراحل الثابتة فى حضارات الأمم ، يشاد عليها بنيان الثقافة فى الأمة فيما بعد . وتتغير اتجهات التعليم التى يتلقاها الشباب والذين فاتوا دور الشباب ، ويظل تعليم الصبيان هو الدعامة الثابتة التى لا تتحول والأساس الذى لا يتعدل .

ونبسط فى إيجاز مراحل التعليم عند المسلمين ، ليتضح لنا مصائر الصبيان ، بعد الانتهاء من الكتاب .

وقد تغيرت هذه المراحل مع تغير الحضارة الإسلامية ، واختلاف العصور ، وتقدم الدول وتأخرها ، وتباين الجهات . ونذاكر هذه المراحل إجمالاً ، لنشهد البناء الكامل ، الذى يعتبر تعليم الصبيان فيه اللبنة الأولى .

فى ضحى الإسلام : «أن التعليم كان مرحلة تبتدئ بالكتّاب أو بالمعلمين الخاصين ، وتنتهى بأن تكون حلقة بالمسجد»[٨] .

«قال مصعب : كان لمالك حلقة فى حياة نافع أكبر من حلقة نافع»[٩] . وكان التعليم أحياناً فى مجالس خاصة بدلاً من حلقات المساجد . جاء فى ترجمة مالك أيضاً : «وكان كالسلطان له حاجب يأذن عليه فإذا اجتمع الناس ببابه أمر فدعاهم

---

(٨) ضحى الإسلام - أحمد أمين ج ٢ ص ٦٦ .

(٩) الديباج ص ٣١ .

فحضر أولاً أصحابه فإذا فرغ من يحضر ، أذن للعامة ، وهذا هو المشهور من سماع أصحاب مالك »[١٠] .

ومن الشائع عند المسلمين أيضاً الرحلة فى صلب العلم . وفضل الارتحال أن العالم يطوف بدول كثيرة ، فيشاهد أحوال الشعوب . وتقاليد الناس وعاداتهم ، واختلاف طبائعهم ، ثم يتصل بشيوخ بأعيانهم يأخذ عنهم ويتلقى العلم عليهم ، مما يؤدى إلى كثرة الاطلاع ، ووفرة الثقافة ، واتساع دائرة الفكر ، وأفق الذهن .

وقد رأينا فى ترجمة القابسى أنه رحل فحج وسمع من علماء كثيرين .

وفى ترجمة النسائى صاحب السنن أنه : « طوف وسمع بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة » .

وفى ترجمة سحنون أنه : « رحل فى طلب العلم فى حياة مالك وهو ابن ثمانى عشرة سنة »[١١] .

ثم تطور التعليم من حلقات المساجد ، إلى مدارس منظمة ، حبست عليها الأوقاف لضمان حياتها . وبدأ ذلك التطور فى القرن الرابع الهجرى فى زمن الفاطميين ، وازدهرت المدارس فى عصر الدولة الأيوبية والمماليك ، ثم تدهورت بعد ذلك .

قال ابن جبير فى معرض الحديث عن مصر : « من مناقب هذا البلد ، ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه (يقصد صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد »[١٢] .

وكانت كتب العلم الجليلة الشأن توقف على هذه المدارس ليستفيد منها الطلاب والمدرسون . جاء فى صدر مخطوط فيه تلخيص كتب أرسطو طاليس لابن رشد الفيلسوف ما يأتى : « وقف وحبس وسبل وتصدق العبد الفقير صرغتمش . . على المشتغلين بالعلم الشريف ، وعلى المقيمين بالمدرسة الحنفية المجاورة لجامع

---

(١٠) الديباج ص ٢٣ .

(١١) الديباج ص ١٥٠ .

(١٢) رحلة بن جبير طبع بغداد ١٩٣٧ ص ٩ .

ابن طولون »[١٣]

ويرى الأستاذ خليل طوطح أن التعليم يمر فى المراحل الآتية :

١ – المكتب أو الكتاب .

٢ – الجامع .

٣ – مجلس العلم أو مجلس الأدب .

٤ – المدرسة أو الكلية[١٤] .

تصوير حالة التعليم :

يخرج المرء من قراءة كتاب القابسى بصورة واضحة عن حالة تعليم الصبيان فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى .

وهى صورة واضحة ، وتعتبر كثيرة الجلاء بالنسبة لما كتبه غير القابسى من المؤلفين فى هذا الموضوع ، لأنه أسهب حين أوجزوا ، وذكر ما لم يذكروا ، وجمع شئون تعليم الصبيان فى كتاب واحد .

يُبعث الصبى إلى الكتاب إذا عقل . هذه الكتاتيب منتشرة فى أنحاء المدن والقرى ، قد تكون إلى جوار المساجد ، وقد تكون بعيدة عنها ، ولا تكون بداخلها على أية حال .

ويقوم بالتعليم فى هذا الكتاب معلم ، هو الذى يستأجر الكتاب ، ويتخذه مكاناً للتعليم . وقد يشترك معلمان أو أكثر فى التعليم بالكتاب إذا كان عدد الصبيان كثيراً ، ولكن الغالب أنه معلم واحد . وليس للحاكم سلطان على هذه الكتاتيب ، فهو لا ينشئها ، ولا يشرف على سير التعليم فيها ، ولا شأن له بها . وإنما يفتتح المعلمون الكتاتيب من تلقاء أنفسهم ، ويدفع إليهم الآباء بأبنائهم حسب رغبتهم ، ويتلقى الصبيان التعليم فى نظير أجر يدفعونه إلى المعلم ، قد يكون مشاهرة ، وقد

---

(١٣) مخطوط رقم ٢٤٦ المكتبة الملكية بالقاهرة وانظر كتاب تلخيص كتاب النفس لابن رشد نشر ، أحمد فؤاد الأهوانى ، ١٩٥٠ .

(١٤) التربية عند العرب – خليل طوطح – ص ١١ .

يكون مساناة ، وقد يكون بمقدار ما تعلم الصبى .

وليس الكتاب داراً كبيرة فيها فصول كثيرة كما هى الحال فى المدرسة الأولية المعروفة الآن ، وإنما هو مكان متواضع ، يتسع لهذا العدد من الصبيان الذين يشرف عليهم معلم واحد ، قد يكون حانوتاً ، وقد يكون بضع حجرات فى منزل .

ويذهب الصبى مبكراً إلى الكتاب ، فيبدأ بحفظ القرآن ، ثم يتعلم الكتابة ، وعند الظهر يعود إلى المنزل لتناول الغداء ، ثم يرجع بعد الظهر ويظل حتى آخر النهار .

وبطالة الصبيان من بعد ظهر يوم الخميس ، وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعودون صباح السبت .

يتعلم الصبى مدة دراسته التى قد تستمر إلى وقت البلوغ أو بعده بقليل القرآن والكتابة والنحو والعربية . وقد يتعلم الحساب والشعر وأخبار العرب . على أن أهم ما يدرس الصبى هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجمعية . إذ يبدأ المعلم أو العريف بآية يرددها الصبيان من بعده . ولكل صبى لوح يكتب فيه ، يثبت فيه ما يريد أن يحفظه ، ثم يمحوه ليكتب شيئاً جديداً ، ولم يكن من اللازم أن يحفظ الصبى القرآن كله ، إلا إذا كانت تلك رغبة أبيه .

فإذا أخطأ الصبى فى الكتابة والهجاء والحفظ ، أو أهمل ، أو انصرف إلى اللعب والعبث دون الدرس والعلم ، أو هرب من الكتّاب ، عاقبه المعلم بالنصح تارة ، والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ، إن لم تفلح النصائح ، ولم يجد التهديد .

وإذا أتم الصبى مرحلة التعليم فى الكتاب ، جاز امتحاناً فيما حفظ من القرآن وفى الكتابة . واختبار حفظ القرآن كله يعرف بالختمة . وعندئذ إما أن ينقطع عن التعليم ويتجه إلى الصناعة التى يريد أن يزاولها لكسب المعاش ، وإما أن ينصرف إلى مرحلة أخرى من التعليم أرقى من التعليم فى الكتاب .

هذه هى الصورة التى ندركها من الاطلاع على كتاب القابسى على وجه الإيجاز ، وأركان هذه الصورة التى تتركب منها أربعة : هى الكتاب والمعلم والصبى

والقرآن هذه العمد الأربعة هى الأساس الذى يقوم عليه التعليم الأولى كما وصفه القابسى . وعلينا أن نبحث بعد ذلك أهذه الصورة مستمدة من الواقع أم يصف فيها ما ينبغى أن يكون ؟ ثم نتبين إذا كان هذا النوع من التعليم إقليمياً أم عاماً .

صورة واقعية أم مثالية :

عنوان كتاب القابسى يرشدنا إلى الاتجاه الذى سلكه فى معالجة مشكلة تعليم الصبيان ، فهى الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، وأحكام المعلمين والمتعلمين . والأحوال والأحكام كلاهما مستمد من الواقع لا من المثال .

فقد ينصرف الذهن إلى أن هذه الصورة المذكورة عن الصبيان وما يتلقون من مواد مختلفة ، وعن طريقة تعليمهم وتأديبهم وسلوكهم ، وعن صلة المعلم بهم ، ليست منتزعة من الواقع ، بل هى المثل الأعلى الذى ينشده القابسى فى التعليم .

وليس غريباً أن يسلك بعض المفكرين والفلاسفة طريقة مثالية فى كتابتهم عن التربية ، فى الزمن القديم كتب أفلاطون عن التربية فى الجمهورية . وفى العصر الحديث أخرج روسو كتاب « أميل » فى تربية الطفل . وكلاهما مثالى لم يصف حقيقة الحال ، ولم يأخذ الناس بجميع آرائهما بعدهما . وكثيراً ما يخرج المفكرون فى مُثُلهم عن حدود القوانين الطبيعية والاجتماعية ، مما يجعل تطبيق نظرياتهم العقلية ضرباً من المستحيل . فقد أراد روسو أن يعود بالإنسان إلى نوع من المعيشة البدائية الفطرية لا يستقيم مع حال الحضارة ولا يتفق مع طبيعة العمران .

ولم يكن القابسى مثاليًّا من طراز هؤلاء المربين ، وإنما كان يصف الواقع لا ما ينبغى أن يكون . ثم هو لا يتعدى فى أحكامه القوانين الاجتماعية .

اتخذ القابسى الواقع أساساً له فيما كتب ، وصوّره ، ثم بين بعد ذلك الأسباب التى تجعله يجيز ماكان سائداً ، وكل ذلك بأحكام شرعية . وهو يصور الواقع بما لا يعدو حدود الوصف بكل ما فى أحوال التعليم من خير وشر وحسن وقبح . والمظاهر الاجتماعية فيها الصالح وفيها الفاسد فى كل زمان ومكان . أما الصالح فإن القابسى يقره ، ويأمر به ، ويجيزه ويستحسنه . أما الفاسد فإنه ينهى عنا ، ويزجر

المعلمين عن الإتيان به ، ويستقبحه وينصح بالابتعاد عنه .

وهو حين يحكم على شيء بأنه حسن ، فهو يتبع طريقة الفقهاء التى ذكرناها ، وهى الاستناد إلى أصول من الكتاب والسنة والإجماع . والمصلحة التى يذكرها هى المصلحة الشرعية أو الدينية . فتعليم « الأنثى القرآن والعلم حسن ، ومن مصالحها » ، لأن ذلك هو السبيل إلى معرفة الدين وتأدية الصلاة المفروضة على المؤمنين والمؤمنات . ولم تكن هناك حاجة إلى النص على وجوب فصل الجنسين ، خشية ما يلحق من فساد ، لولا الجمع بين الذكور والإناث فى الكتاتيب .

والصورة واقعية ، لأن كثيراً من المسائل تجرى مع العرف الذى أجاز القابسى أغلبه . فوجوب الختمة للمعلم تكون على قدر يسر الأب وعسره ، وليس فى ذلك حد مؤقت ، إنما هو ما يرى أنه واجب فى عادات الناس فى مثل هذا المعلم . والعطية فى العيد مستحسنة ، ولم يزل ذلك مستحسناً فعله فى أعياد المسلمين .

ولا ننسى أن الكتاب دار على أسئلة وجهها سائل إلى القابسى فأجاب عنها . وأسئلة السائل هى وصف لأحوال التعليم فى عصره ، أتتفق مع مبادئ الشرع أم لا تتفق ، ولذلك فزع إلى الفقيه يطلب رأيه فيها . ويجيب القابسى بقوله : « وأما وصفك لما جرى عندكم من صنيع معلميكم إذا تزوج رجل . . . » ٦٢ – ب . فيبعث المعلم صبيانه فى طلب طعام وما أشبه بمناسبة الزواج ، ويتبطل الصبيان يوماً وبعض اليوم ، فطلب الهدية على هذا النحو حرام ، وينبغى أن يترك المعلم هذا العمل لأنه من العادات المستقبحة . والعرف المذموم .

وقد يقتضى الأمر فى بحث مسألة من المسائل أن يردها إلى أصولها التاريخية ، ويتتبع تطورها إلى أن تبلغ زمانه . فالحاضر وليد الماضى . مثال ذلك : مسألة أجر المعلم ، ففى عصر القابسى كان المعلمون يتناولون الأجر على التعليم ، ولم يكن الأمر كذلك فى زمن الصحابة ، فما الحاجة التى ألجأت الناس إلى تغيير أحوالهم ، والخروج على أفعال الصحابة والتابعين ؟ وأفعالهم . كما تعلم هى الصراط المستقيم الذى ينبغى أن يسير الناس عليه من بعدهم . إنها حاجة الدين ، وحاجة العصر والزمان .

وهذا الذى فعله فى مسألة الأجر فعله فى جميع المسائل الأخرى ، فهو يصف ما يجرى عليه المعلمون فى أحوالهم ، ثم يفسرها فى ضوء التاريخ ، لهذا رجع إلى مالك ، وإلى ابن وهب وإلى ابن القاسم ، وإلى ابن سحنون فى كتابه الذى دوّنه عن سحنون . ولم يتطور العالم الإسلامى كثيراً فى طريقة تعليم الصبيان منذ عصر سحنون إلى زمن القابسى .

الواقع إذن هو الصورة التى يدور حولها القابسى ، فيؤيد ما يستحسنه ويذم ما يستقبحه . وما ذكره ابن خلدون فى مقدمته خاصاً بطريقة التعليم بإفريقية ينطبق على الوصف الذى ذكره القابسى من أن الصبى يتعلم القرآن ، والكتابة والخط ، وبعض النحو والإعراب . على حين أن الحساب والشعر والنحو والعربية والإعراب ، ليس تعليمها لازماً إلا إذا تطوع المعلم .

رأىٌ واحد هو الذى نستطيع أن نعتبره من النظريات المثالية التى تمنى القابسى ذيوعها ، وهو الرأى القائل بإلزام التعليم . فقد أوجب تعليم الصبى من مال أبيه أو وصيه أو أحد أقاربه أو من مال أحد المحسنين ، أو يعلمه المعلم احتساباً . ولم يكن جميع صبيان المسلمين يتلقون التعليم ويعرفون القراءة والكتابة ، ولكنه رأىٌ رغب القابسى فى أن ينتشر ، فسبق بذلك عصره ودل على بعد نظره .

من هذا كله نخرج بالنتيجة الآتية ، وهو أن موضوع التعليم الذى ذكره القابسى كان وصفياً يقرر فيه الواقع ، ويحيطنا بلون من ألوان البيئة العقلية فى إحدى جوانبها ، وهى بيئة المعلمين فى الكتاتيب .

وتختلف هذه الصورة عما كان معهوداً عن حال التعليم فى الصدر الأول من الإسلام ، وتختلف أيضاً عن صورتها بعد عصر القابسى ، إلى جانب اختلافها فى المكان مما سنذكره فيما بعد ، فى أن هذا اللون من التعليم الذى بين أيدينا هو تعليم إقليمى وليس عاماً . وهذا التغير فى الزمان طبيعى ، لأن المجتمع لا يدوم على حال ، بل يتطور وينمو ويزدهر وقد ينحط ويتدهور ، كما هى سنة الكائنات الحية جميعاً ، ولم يكن هذا التطور خافياً عن ذهن القابسى ، فقد أشار إليه فى مناسبات عدة وذكر أن المسلمين الأوائل لم يعرفوا المعلمين المنقطعين إلى هذه الصناعة التى

يتناولون عليها الأجر ، ويجعلونها مصدر الكسب وعماد المعاش . فإذا انتفى وجود المعلمين فقد اختفت صورة التعليم المنظمة الداخلة بين جدران الكتاتيب ، واختفى معها أوقات الدراسة ، وطرق التعليم ، ومناهج العلم ، وأدوات التأديب . وإنما نشأ هذا كله بعد النبي وبعد عصر الصحابة . حتى إذا بلغنا القرن الرابع قدَّم إلينا القابسي هذه الصورة التي سادت في شمال إفريقية . وتغيرت أحوال التعليم بعد القرن الرابع الهجري ، ولكنه ليس تغييراً عظيماً يختلف عن الجوهر المألوف ، بل هو تغيير شكلي . فقد انتظمت الكتاتيب نوعاً ما ، واستقرت لعناية أولي الأمر بها ، ورصد الخيرات من مال الأوقاف للصرف عليها ، وبذلك ضمنت البقاء والحياة .

تعليم إقليمي أم تعليم عام :

هل الوصف الذي بسطه القابسي يختص بالإقليم الذي يعيش فيه ، أو هو وصف لحالة التعليم والمعلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ؟

هذه مسألة لابد أن نرجع فيها إلى التاريخ ، للموازنة بين رأي القابسي وآراء غيره . والعالم الإسلامي ينقسم على وجه العموم إلى قسمين كبيرين : المشرق ويشمل بلاد العرب وفارس والعراق والشام ، ومصر ، والمغرب ويشمل شمال إفريقية والأندلس .

وقد وصف حالة تعليم الصبيان في هذه الأقطار المختلفة ابن خلدون في مقدمته وأبو بكر ابن العربي في بعض كتبه ، ونجد شذرات متفرقة خلال كتب التاريخ والفقه والأدب تفيد في الحكم على طريقة التعليم في المشرق والمغرب .

وهناك أمور اتفق عليها المسلمون جميعاً منذ أشرق نور التعليم واهتم به أولياء الأمر . هذه الأمور هي التعليم في الكتاب . وقيام معلمين مخصوصين بالتعليم يتناولون الأجر على ذلك . فالثابت أن الكتاتيب انتشرت بعد الصدر الأول من الإسلام ، وأصبحت المكان المخصوص بتعليم الصبيان . واتخذ بعضهم التعليم صناعة عرف بها ، ومنهم من برز في العلم والأدب ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي

وأبيه ، وعبد الحميد الكاتب[١٥] وغيرهم . والمعروف أن هؤلاء المعلمين كانوا يتناولون الأجر على صناعتهم .

أما الخلاف فيقع فى طريقة التعليم ، أو فى المنهج الذى يدرسه الصبيان ، وفى ترتيب العلوم التى يبدءون بتعلمها .

وقد يقع الخلاف أيضاً فى سياسة الصبيان وعقابهم . وفى أمور فرعية تتصل بوقت الدراسة والبطالة وأشباه ذلك من الأمور الخاصة بالتعليم . ولكن الكتب التى عالجت مثل هذه المواضيع لم تشمل كثيراً من التفاصيل .

عن ابن خلدون [١٦] :

١ – أما أهل المغرب فذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم فى أثناء الدراسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه .

٢ – أما أهل الأندلس فذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك ، وأسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً فى التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون فى تعليمهم الولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة . ولا تختص عنايتهم بالقرآن دون غيره ، بل عنايتهم بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة .

٣ – وأما أهل إفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب . . .

إلا أن أكثر عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ، وقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك .

٤ – وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على ما يبلغنا ، ولا أدرى بم

---

(١٥) البيان والتبين ج ١ ص ٩٢ .

(١٦) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .

عنايتهم منها ، والذى ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ، ولا يخلطونه بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما تتعلم سائر الصنائع ، ولا يتداولونها فى مكاتب الصبيان .

ونخلص من هذا إلى أن جميع الأقطار تبدأ بتعليم القرآن ، ثم أهل المغرب يقتصرون عليه ، ويخلط أهل إفريقية القرآن بالحديث والخط ، ويهتم أهل الأندلس مع القرآن بعلوم العربية والخط ، ويخلط أهل المشرق أيضاً فى التعليم فيضيفون إلى القرآن بعض العلوم ، ولا يهتمون بالخط فى الكتاتيب .

أما أبو بكر بن العربى فلا يصف طريقة التعليم المتبعة ، ولكنه يذكر ما يرى أنه الواجب وقد لخص ابن خلدون رأيه فقال : «وقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته إلى طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبدأ . وقدَّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس . . . ثم ينتقل منه إلى الحساب . . . ثم ينتقل إلى درس القرآن . . . ثم قال : ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره يقرأ ما لا يفهم»[١٧] :

وفى تعليق ابن خلدون على كلام ابن العربى ما يدل على أن هذه الطريقة غير متبعة قال : «وهو لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه» .

قال ابن العربى فى كتاب القواصم والعواصم يصف التعليم بالأندلس : «فصار الصبى عندهم إذا عقل ، فإن سلكوا به مثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ ، فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . . .»[١٨] .

وعن أبى بكر بن العربى يصف التعليم بالمشرق :

«وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب ، فإذا عبر المكتب أخذوه بتعلم الخط والحساب والعربية . فإذا حذقه كله وحذق منه ما قدر له خرج إلى المقرئ فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب

---

(١٧) ابن خلدون ص ٣٩٨ .

(١٨) عن الديباج ص ١٢١ فى ترجمة القاضى ابى الوليد الباجى .

أو نصفه أو حزباً ، حتى إذا حفظ القرآن خرج إلى ماشاء الله من تعليم أو تركه .

ومنهم – وهم الأكثر – من يزخر حفظ القرآن ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله . فربما كان إماماً وهو لا يحفظه . وما رأيت بعيني إماماً يحفظ القرآن وما رأيت فقيهاً يحفظه إلا اثنين ، ذلك لتعلموا أن المقصود حدوده لا حروفه »[١٩] .

ويبدو لنا أن وصف ابن العربى حال التعليم فى المشرق بعيد عن الواقع إذ كان من الضرورى تعلم قدر من القرآن تصح به الصلاة . ويجوز أن يُحمل كلام ابن العربى على من يريد حفظ القرآن كله ، وليس موضوعنا ، فقد أجمع كل من كتب عن التعليم على أن القرآن هو الأصل الذى يبدأ الصبيان بتعلمه ، كما ذكرنا عن ابن خلدون . وذكر ابن حزم ما نصه : « مات رسول الله والإسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب . من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم ، ماراً إلى سواحل اليمن كلها ، إلى بحر فارس إلى منقطعه . ماراً إلى الفرات ، ثم على ضفة الفرات إلى منقطع الشام إلى بحر القلزم ، وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طيئ ، وربيعة وقضاعة والطائف ومكة ، كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب »[٢٠] .

من هذا يتضح لنا أن تعليم القرآن فى المشرق كان هو المبدوء به . لنفعه فى الصلاة مع ماكان يصحبه من تعلم الكتابة .

أما الطريقة التى أرادها ابن العربى فهى طريقة مثالية وليست واقعية .

وشبيه بهذا ما أثر عن بعض رجال الفكر وقادة العرب فى طريقة تعليم أبنائهم . قال الحجاج لمعلم ولده : « علم ولدى السباحة قبل الكتابة »[٢١] .

---

(١٩) أحكام القرآن لابن العربى ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢٠) ابن حزم ج ٢ ص ٦٦ .

(٢١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢ .

وعن عمر بن الخطاب : «علموا أولادكم العوم والرماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً ، ورووهم ما يحمل من الشعر»[٢٢] . وقال ابن التوأم : «علم ابنك الحساب قبل الكتاب ، فإن الحساب أكسب من الكتاب ، ومؤونة تعلمه أيسر ، ووجوه منافعه أكثر . . وفى ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء ، أن يعلمه الكتاب والحساب والسباحة»[٢٣] .

فهذه كلها وصايا خاصة تفصح عن مزاج أصحابها ولكنها لا تدل على شيوع هذه المبادئ . ولم يكن معلم الكتاب هو المخصوص بتعليم الرماية والسباحة ، ولا يتعلم الصبى الرماية فى سن السادسة أو السابعة فسنه أصغر من تعلم هذه الصناعة . ولم يكن صبيان العامة يؤخذون بتعلم مثل هذه الأمور ، وإنما هى نوع من الترف فى التعليم لا يتلقاه إلا أبناء الخاصة على أيدى معلمين ومدربين خاصين بذلك .

والنتيجة التى ننتهى إليها هى أن الطريقة المذكورة فى رسالة القابسى تصف التعليم فى شمال إفريقية . وأبرز ما فى هذه الطريقة البدء بتعليم القرآن ، واتباع أشهر المقرئين فى حفظه والعناية بالخط والهجاء ، ويصحب ذلك بعض النحو والعربية . أما الحساب وهو من المواد المهمة اللازمة للكسب والعمران ، فلم تكن العناية بدرسه ضرورية ، إن لم يكن مهملاً فى الكتّاب .

وقد اتضح لنا من كلام ابن خلدون أنه أثبت اختلاف طريقة التعليم فى الأقطار المختلفة ويشبه ما ذكره عن التعليم فى إفريقية والمغرب ما نص عليه القابسى . وإذا كان القابسى قد وصف طريقة التعليم بما جرى به العرف فى بلاده فالغالب أن بقية الأبحاث المتعلقة بالتعليم والتربية ، هى التى كانت متبعة فى موطنه . وإذا رجعنا إلى نص المخطوط وجدنا أنه كثيراً ما يحكم بما اشتهر بين الناس ، وبما جرى به العرف . وهو يقصد من العرف ما جرى عليه الناس فى بلاده .

لكل هذا نقول إن التعليم الذى وصفه القابسى إقليمى وليس عاماً .

---

(٢٢) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٨٥ .

(٢٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٢ .